أبو جعفر المنصور وأبو حنيفة النعمان

عندما يخالط رجالُ الدين رجالَ السياسة، تقع دومًا المحن والمصائب.

دائمًا ما يلجأ رجال السياسة لرجال الدين حتى يضفوا قدسيةً لحكمهم وغطاءً شرعيًّا لقراراتهم، والتي تكون غالبا ضد مصلحة الرعية، وفي أكثر الأحيان ينساق رجال الدين وراء رجال السياسة منفذين لهم أوامرهم ويحلون لهم ما حرم الله عز وجل، وفي أندر الأحوال يقف رجال الدين أمام رجال السياسة ولا يطاوعوهم في طغيانهم، ويقفون أمامهم وقفة الند بالند.. وهو ما حدث في هذا الفصل.

بطلنا هو الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان وهو أول الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة وصاحب المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي، والرجل الذي وقف أمامه هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، ومؤسس دولتهم الحقيقي وباني مدينة بغداد عاصمة الثقافة العربية.

كان للإمام أبي حنيفة محنتان في حياته، الأولى عندما خرج زيد بن على زين العابدين على هشام بن عبد الملك، كان أبو حنيفة من المؤيدين للإمام زيد ومعارض للخليفة الأموي، وانتهت ثورة الإمام زيد بقتله، كما قتل ابنه يحيى في خراسان وابنه عبد الله بن يحيى ف.ي اليمن.. لقد كان لزيد بن على منزلة في نفس أبي حنيفة وكان يقدره في علمه وخلقه ودينه، واعتبره الإمام بحق، وأمده بالمال ثم رآه يقتل بسيف الأمويين ثم يقتل من بعده ابنه، ثم من بعده حفيده، فأحنقه كل ذلك وجعله يقف في صف معارضة الأمويين، الأمر الذي جعلهم يضايقونه وحمله على الهروب إلى مكة والاحتماء بحرمها الشريف

هناك، حتى نهاية الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية واستيلائها على مقاليد السلطة.

أتت المحنة الثانية في حياة الإمام، عندما تولَّى أبو جعفر المنصور مقاليد الحكم، كان أبا حنيفة قد استقبل عهد العباسيين بارتياح، فقد رأى اضطهاد الأمويين لبني على بن أبي طالب وأهل بيت النبي محمد وما فعلوه معهم من قتل وتعذيب وتنكيل، واستمر على ولائه للدولة العباسية لمحبته لآل البيت جميعا ولقد كان الخليفة أبو جعفر المنصور يدنيه ويعليه ويرفع قدره ويعطيه العطايا الجزيلة، ولكنه كان يردها ولا يقبل العطاء ولم يعرف عن أبي حنيفة أنه تكلَّم في حكم العباسيين، حتى نقم عليهم أبناء علي بن أبي طالب، واشتدت الخصومة بينهم، وقد كان ولاء أبي حنيفة لبني علي، فكان طبيعيًّا أن يغضب لغضبهم، وخصوصًا أن من ثارا على حكومة أبي جعفر، هما: محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن، وأخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وكان أبوهما عبد الله ممن اتصل به أبو حنيفة اتصالًا علميًّا، وقد كان عبد الله وقت خروج، ولديه في سجن أبي جعفر، ومات فيه بعد مقتل ولديه.

كان موقف أبو حنيفة من خروج محمد النفس الزكية على المنصور شديدًا، أخذ يجهر بمناصرته في درسه، بل وصل الأمر إلى أن ثبط بعض قواد المنصور عن الخروج لحربه، وكان هذا العمل في نظر أبي جعفر المنصور من أخطر الأعمال على دولته، لأن أبو حنيفة تجاوز فيه حد النقد المجرد والولاء القلبي إلى العمل الإيجابي، فأراد المنصور أن يختبر طاعة أبو حنيفة وولاءه له، وقد كان يبني بغداد آنذاك، فأراد أن يجعله قاضيًا للقضاة في المدينة الوليدة، امتنع أبو حنيفة عن تنفيذ رغبة الخليفة، فأصر المنصور على أن يتولى له عملًا أيا كان، فقبل أبو حنيفة أن يقوم ببعض أعمال البناء من إعداد الطين اللبن

وما شابه ذلك، فاستطاع بذلك أن يغمض عنه أعين المنصور لفترة صغيرة من الزمان.

كان أبو حنيفة بعد مناوأة بني علي للمنصور وإيذائه لهم وقتله لرؤوسهم، لا يرتاح إلى حكومته، وقد استطاع أن يدرأ عنه أذاه وانصرف إلى العلم، ولكن كان من وقت لآخر يقول بعض الأقوال أو تكون منه أمور تكشف عن رأيه فيه وفي حكومته، ومن ذلك أن أهل الموصل كانوا قد انتفضوا على المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إذا انتفضوا تحل دماءهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة وسألهم عن رأيهم الفقهي في ذلك الأمر، هادن معظم الفقهاء الخليفة ووافقوه على ما قال، إلا الإمام الراحل فكان معارضه الوحيد.

لقد كان أبو حنيفة يميل إلى أبناء علي بن أبي طالب، وكان ذلك يبدو على لسانه في حلقة درسه وبين تلاميذه، وكان يجهر بمخالفة المنصور في غاياته عندما يستفتيه، كما كان يمتنع عن قبول العطايا والهبات من المنصور، وكان ينقض القضاء نقدًا مرًا إذا وجد فيه ما يخالف الحق في نظره، من غير أن يلتفت إلى ما يجره ذلك النقد من ضياع روعة الأحكام، ولم يكن يدري أن نقطة الذروة لعلاقته مع الخليفة قد اقتربت.

عندما دعا أبو جعفر المنصور أبو حنيفة ليتولى القضاء، امتنع، فطلب منه رجوع القضاة إليه فيما يشكل عليهم ليفتيهم، فامتنع أيضًا، لتثور عليه ثائرة الخليفة، أنزل المنصور به العذاب بالضرب والحبس، أو الحبس وحده على اختلاف الروايات بين العلماء، ويروى أن أبو جعفر حبس أبو حنيفة، على أن يتولى القضاء ويصير قاضي القضاة، فأبى حتى ضرب مئة وعشرة أسواط، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب، وطلب منه أن يفتي فيما يرفع إليه من الأحكام، وكان

يرسل إليه المسائل، وكان لا يفتي، فأمر أن يعاد إلى السجن، فأُعيد وغلظ عليه وضيق تضييقًا شديدًا.

اتفق الرواة على أن الإمام قد سجن في عهد أبو جعفر المنصور، وأنه لم يجلس للإفتاء والتدريس بعد ذلك، إذ أنه مات بعد هذه المحنة أو معها، ولكن اختلفت الرواية حول وفاته، هل مات محبوسًا بعد الضرب الذي تكاد الروايات تتفق عليه أيضًا؟، أم محبوسًا بالسم، فلم يكتف بضربه بل سقي السم ليعجل موته؟، أم أطلق من حبسه قبل موته فمات في منزله بعد المحنة، ومنع من التدريس والاتصال بالناس؟

لا نستطيع أن نجزم بالسبب الحقيقي حول وفاة الإمام الراحل، ولكنه توفي في رجب، وقيل في شعبان وقيل لإحدى عشرة ليلة من جمادى الأولى للعام مائة وخمسين هجريًا، وقيل إنه توفي في اليوم الذي ولد فيه الإمام الشافعي، وكانت وفاته في بغداد، ودفن في مقبرة الخيزران، وقبره هناك مشهور ويزار من الجميع.. ويروى أيضًا أن الإمام لما أحس بالموت، سجد فمات وهو ساجد، وأوصى أن يُدفن في أرضٍ طيبة، لم يجر عليها غصب، وألا يدفن في أرض قد اتهم الأمير بأنه غصبها.

عندما علم الخليفة أبو جعفر المنصور بوفاة الإمام، قال جملته الشهيرة: "من يعذرني من أبو حنيفة حيًّا وميتًا".. شيعت بغداد كلها جنازة فقيه العراق والإمام الأعظم، وصلى عليه حوالي خمسون ألف من المسلمين، حتى الخليفة المنصور نفسه صلى على قبره.

رحم الله رجلًا كان كل ذنبه في الحياة حبَّه لآل البيت، ورفضه أن يكون مجرد تابع لرجل سياسة، يحل له ما لم يحله الله، عز وجل.